خصائص الخطاب المكي
في سورة الشرح

للدكتور

فهد بن محمد العمار

الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية

في قسم البلاغة والنقد

خصائص الخطاب المكي في سورة الشرح

فهد بن محمد العمار

قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

الملخص:

جاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين، ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه، وذكرت في التمهيد تعريف المكي وأهميته، وبيان أن البلاغة هي مراعاة المخاطبين بالكلام، وذكرت فيه أيضا خصائص المجتمع المكي.

وقد جاء البحث في مبحثين: الأول بعنوان: الخصائص الموضوعية لسورة الشرح، ذكرت فيه مناسبة السورة للسورة التي قبلها: سورة الضحى، ومقصودَ سورة الشرح ومضمونها، وهذه الأمور من الأهمية بمكان فهي كالتوطئة للمبحث الثاني؛ لمعرفة كيف جاءت الخصائص الأسلوبية متوافقة مع الخصائص الموضوعية، وذكرت في المبحث الثاني: الخصائص الأسلوبية للخطاب المكي في سورة الشرح، وهو لبّ الدراسة، وجانبها التطبيقي، وقد انطلقت من السورة نفسها تأملا وتدبرا مستفيدا من كلام علماء التفسير والبلاغة وعلوم القرآن في بيان ما تميزت به من خصائص وأساليب، وربط ذلك بالعهد المكي، وبمن خُوطب بالسورة وهو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد ذكرت عددا من الخصائص الأسلوبية البارزة في السورة، ولها علاقة وثيقة بالعهد المكي، ومنها الاستفهام، والتكرار، والتوكيد، والقصر، والتقديم والتأخير، فضلا عن لغة السورة، وانتقاء كلماتها. ثم خاتمة البحث

ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم فهرس البحث، ذكرت فيه ثبت المراجع والفهارس، وفهرس الموضوعات .

الكلمات المفتاحية : خصائص – الخطاب – المكي – سورة الشرح.

Characteristics of the Meccan discourse in Surat al-Ass explanation

Fahd bin Mohammed al, Ammar

Department of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Arabic Language

Abstract:

The research was presented in the introduction, introduction and two researches, which mentioned in the introduction the importance of the topic, the reasons for its choice, and outlined the objectives of the study, the research plan and its methodology, and mentioned in the preface the definition and importance of mecca, and a statement that the rhetoric is to take into account the speech-makers, and also mentioned the characteristics of the Macian society.

The research was mentioned in two topics: the first entitled: The objective characteristics of the explanation, in which it mentioned the occasion of the surah of the surah before it: Surat al-Daha, and the content of the surat al-Sura and its content, and these things are important as the prelude to the second research; Stylistic is compatible with objective characteristics, and was mentioned in the second research: the stylistic characteristics of the Meccan discourse in Surat al-Tahsr, which is the core of the study, and its applied aspect, and was launched from the Surah itself meditation and reflection, taking advantage of the words of the scholars of interpretation, eloquence and qur'anic sciences in a statement Its characteristics and methods, linked to the Makki era, and to those of Khotab al-Sura, the Messenger of God , peace be upon him, have mentioned a number of prominent stylistic characteristics

in the Surah, and have a close relationship with the Meccan era, including questioning, repetition, confirmation, palace, submission and delay, as well as the language of the Surah, and the selection of its words. Then the conclusion of the research mentioned the most important findings, and then the research index, in which it mentioned the proven references and indexes, and the index of topics.

Keywords: Characteristics - Speech - Al-Makki - Surat Al-Sura Explanation.

خصائص الخطاب المكي في سورة الشرح

الحمد لله رب العالمين الذي تكرم علينا وتفضل بالقرآن الكريم، فكان معجزة خالدة من لدن نزوله وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والصلاة والسلام على خيرة البرية والأنام محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فجاء اختياري لموضوع " **خصائص الخطاب المكي في سورة الشرح**"؛ لأهميته، وجليل شأنه في الدراسات القرآنية، فلا يخفى مكانة المكي والمدني لدى علماء علوم القرآن، والمهتمين به، فقد حظي بالعناية الفائقة، والرعاية الخاصة به قديماً وحديثاً، فقد أخذ حقه في الدراسات القرآنية، فقلَّ أن تجد كتاباً يبحث في علوم القرآن إلاَّ وتجد فيه مساحة واسعة في الحديث عنه، والإشارة إليه، والإشادة به، وبيان منزلته وثمرته، وبيان عناية العلماء به.

ولن أتحدث في هذا البحث عن خصائص الآيات المكية على وجه العموم، ولن أتحدث أيضا عنها حديثا نظريا، بل هي دراسة تحليلية تطبيقية، وستكون سورة الشرح مجال هذه الدراسة، وهذا شيء من تميز هذا البحث، أنه تطبيق وتوظيف لخصائص السورة المكية من خلال سورة الشرح، ومن هنا كان عنوانه:(خصائص الخطاب المكي في سورة الشرح)، وسأنطلق في بيان هذه الخصائص من السورة نفسها من خلال بيان خصائصها الأسلوبية والموضوعية، وبيان كيف توافقت تلك الخصائص مع القوم الذين نزلت عليهم تلك الآيات، والأسرار البلاغية التي تم توظيفها في مخاطبة هؤلاء الأقوام الذين تنزلت عليهم هذه السورة.

أهمية الموضوع وسبب الاختيار:

ثمة أسباب علمية دعتني إلى اختيار هذا العنوان، والكتابة فيه، ومن أهمها ما يأتي:

أولا: لأهمية المكي والمدني في الدراسات القرآنية، والدراسات البلاغية أيضا، فاللمكي والمدني مكانة لدى علماء علوم القرآن، والمهتمين به، فقد حظي بعناية العلماء قديماً وحديثاً تأليفا وتصنيفا.

ثانيا: تتجلى أهمية هذا البحث؛ في كونه دراسة تطبيقية، وهذه هي الإفادة الحقيقة من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيفه في مثل هذه الدراسات البلاغية التطبيقية.

ثالثا: أن معرفة المكي والمدني تجعلنا ندرك الفروق الأسلوبية، والخصائص الموضوعية والتعبيرية للقرآن الكريم، من خلال معرفة سبب نزول السورة، وبيان أحوال الأقوام التي تنزلت عليهم هذه الآيات.

رابعا: في هذا البحث تأكيد على أن لكل مقام مقالاً، فلكل قوم ما يخصهم من الخطاب، ومن ثم تأتي الخصائص الموضوعية والأسلوبية لسورة الشرح متوافقة مع المخاطبين بها، وهل البلاغة إلاَّ هذه ؟!

خامسا: سورة " الشرح" من أوائل السور التي نزلت في العهد المكي، فترتيبها في النزول الحادي عشرة[1]، فجاءت محمَّلة بكثير من خصائصه الأسلوبية والموضوعية المتوافقة مع طبيعة الدعوة في بداياتها الأولى، فقد استُفتحت السورة بالاستفهام بدلالاته المتعددة، كما توافر فيها أسلوب التكرار، والتوكيد،

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١.

والتقديم والتأخير، وغيرها من الأساليب البلاغية، كما سيتضح ذلك من خلال هذا البحث.

أهداف الدراسة:

تتجلى الأهداف التي أسعى إلى تحقيقها فيما يأتي:

أولا: إبراز أثر المكي والمدني في معرفة خصائص خطاب المكي، وبيان علاقتها بالمخاطبين بها.

ثانيا: حصر خصائص الخطاب المكي في سورة الشرح، وبيان سر توافرها في هذه الحقبة الزمنية.

ثالثا: بيان العلاقة بين الخصائص الموضوعية والخصائص الأسلوبية التي توافرت في سورة الشرح، وبيان أثرها في تحقيق غرض السورة، ومقصودها الأعظم .

منهج الدراسة:

ستقوم الدراسة على المنهج الوصفي، القائم على الاستقراء والتحليل، الاستقراء لخصائص الخطاب المكي بكل مكوّناته في سورة الشرح، وتحليل تلك الخصائص تحليلا بلاغيا.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة وتمهيد، ومبحثين، ذكرت في المقدمة: أهمية الموضوع، وسبب الاختيار، وأهداف الدراسة، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

وفي التمهيد ذكرت فيه ما يأتي:

أولا: **المكي: تعريفه وأهميته**

ثانيا: **أن البلاغة هي مراعاة القوم المخاطبين:**

ثالثا: **خصائص الخطاب في العهد المكي:**

وجاء البحث في مبحثين:

المبحث الأول: الخصائص الموضوعية لسورة الشرح: بينت فيه سبب النزول، ومناسبتها لما قبلها، والخصائص الموضوعية لها.

المبحث الثاني: الخصائص الأسلوبية لسورة الشرح

ثم الخاتمة، ذكرت فيها نتائج البحث التي توصلت إليها، وبعض التوصيات العلمية.

وبعد فهذا ما سأسعى إلى بيانه والكتابة فيه، فإن تم ذلك على ما أريد فهو توفيق منه الله وحده وتيسير، وإن كان ثمة من نقص وقصور فهو من نفسي والشيطان، والله أسأل أن يتولانا بفضله وبرحمته، وأن يأخذ بيدي للحق والصواب، فهو نعم المولى، ونعم المسؤول.

التمهيد، ويشمل:

أولا: المكي: تعريفه وأهميته

ثانيا: أن البلاغة هي مراعاة القوم المخاطبين

ثالثا: خصائص الخطاب في العهد المكي

أولا: **المكي: تعريفه وأهميته:**

تعريفه: عُني المهتمون بالقرآن وعلومه، ببيان المراد بتعريف المكي والمدني، وتعددت في ذلك أقوالهم، وتعددت كذلك التعريفات المتعلقة ببيان المكي والمدني، وهذا التعدد يدل على اهتمامهم به، وأنه نال حظا وافرا من الاهتمام والدراسة، فقد تعاقبت عليه العقول، وأعطوه مزيدا من التأمل والنظر.(١)

ولكن القول الراجح والمعتمد لدى كثير من المهمتين بعلوم القرآن أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها سواء كان ذلك نزول الآية في مكة أو المدينة، وهذا التعريف هو الأشهر والأولى؛ لحصره واطراده(٢)، ((وعليه أكثر العلماء لكونه منضبطا محددا، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي، ولو نزل في غير مكة، وما نزل بعدها فهو مدني، ولو نزل بمكة، فالهجرة هي الحد الفاصل بين المكي والمدني)). (٣)

أهميته: للمكي والمدني فوائد متعلقة بالقرآن الكريم، ومعرفة معاني آياته، وتشريعات أحكامه، ولذا فإن الاهتمام بالمكي والمدني مظهر من مظاهر الاهتمام بالقرآن الكريم، كما أن المكي والمدني وثيق الصلة ببيان معنى الآية، وبمعرفة الناسخ والمنسوخ، كما أن له علاقة بسبب نزول الآية، فالمكي والمدني يكشف الأجواء المحيطة بالآية وبكل ما يتعلق بها، وهذا الأمر من الأهمية بمكان.

---

(١) انظر: الإتقان: ١/ ٢٢، ومناهل العرفان: ١/١٨٥ .

(٢) انظر: دراسات في علوم القرآن: ٦٠.

(٣) دراسات في علوم القرآن: ٦١ .

كما أن له صلة وثيقة بتدبر القرآن الكريم وفهم معانيه، وعلى من تصدى لتفسير القرآن أن يكون به ملما وعالما، ولا مِراء في ذلك ولا جدال، ﴿ فكيف يمكن لمن يريد تفسير القرآن أن يجهل هذا كله، ولهذا منع العلماء من أن يتصدى للتفسير من لم يكن ملما بهذا النوع من علوم القرآن ﴾. (١)

ومن منافع معرفة المكي والمدني، وبيان أهميته ما يتعلق بدراسة خصائصه الموضوعية والأسلوبية، ولهذه الأهمية علاقة وثيقة بالدراسات اللغوية والبلاغية، وقد ذكر هذه الأهمية وأبانها أتم بيان الدكتور مناع القطان – وهو من المهتمين بالدراسات القرآنية–، يقول: – بعد أن ذكر جملة من فوائده– ﴿ تذوق أساليب القرآن، والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، فإن لكل مقام مقالا، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة، وخصائص أسلوب المكي في القرآن والمدني منه تعطي الدارس منهجا لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله بما يلائم نفسيه المخاطب، ويمتلك عليه لبه ومشاعره، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة البالغة، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها، كما يختلف باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم، وأحوال بيئتهم، ويبدو هذا واضحا جليا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب﴾.(٢)

(١) علوم القرآن: ١٣٦.

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٦٠.

ثانيا: **أن البلاغة هي مراعاة القوم المخاطبين:**

عرف الخطيب القزويني البلاغة أنها: ﴿ مراعاة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ﴾. [1]، ويتبين من خلال تعريف البلاغة أنها تعنى بالمخاطب، فعلى حسب المخاطب يكون الخطاب، ولا غرو في ذلك فلكل قوم ما يخصهم من الخطاب، وما يصلح لقوم قد لا يصلح لقوم آخرين، والبليغ معنيّ بمعرفة حال مخاطبه؛ ليجعل كلامه متوافقا مع طبيعته، ومع ما يناسبه، فينتقي كلامه، ويراعي مخاطبه، وذلك ﴿ أن المشرع الناجح لا يعامل الناس في مرحلة الانتقال بنفس الطريقة التي يعاملهم بها بعد أن وصل ونضجهم إلى مرحلته الأخيرة، بل على العكس يجب عليه كالطبيب الماهر أن يغير من نظمهم حسب تقدم كفاءتهم وقدرتهم على الإدراك والفهم، فهذا المسلك التدريجي في التعليم والتشريع ليس عيبا، وإنما هو أنجح المناهج في تكوين النفوس الواعية المستنيرة المشبعة بالحكمة﴾[2]، هذا في كلام البشر، فما بالك في بلاغة رب البشر، وفي بلاغة القرآن الكريم الذي وصل حد الإعجاز، وتقطعت دونه الأعناق، وخاب وخسر كل من رام معارضته والإتيان بمثله؟!

ومن هنا فقد تنوع الخطاب القرآني بناء على تعدد المخاطبين بها، فلم يكن أسلوبه على نمط واحد، ولم يأت على وتيرة ثابتة، بل كانت تتنوع وتتعدد بتعدد المخاطبين بها، وتلك هي البلاغة في أسمى معانيها، وبذلك كان القرآن معجزا.

---

(١) الإيضاح : ١٩

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن: ١٦١.

يدل على ذلك ويؤكده قول الجاحظ: ﴿ ورأينا أن الله – تبارك وتعالى – إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشـــارة والوحي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً، وزاد في الكلام ﴾.(١)

فيتبين من خلال هذه المقولة أن الخطاب القرآني تعدد بتعدد المخاطبين، وقد راعى من تكلم به وأنزل حال المخاطبين به، فتنوع أســلوبه بين الإيجاز والإطنـاب، وفي هـذا تـأكيـد ﴿ أن القرآن الكريم قـائم على رعـايـة حـال المخاطبين، فتارة يشــتد، وتارة يلين؛ لِما يقتضــيه حالهم ســواء منهم مكيهم ومدنيهم، بدليل أنك تجد بين ثنايا الســور المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد، وتســامح وتســديد، وأخذ ورد، وجذب وشــد... وإذا لُوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشـدة والعنف، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسـول وأصـحابه، والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرســلوا إليهم الأذى في مهاجرهم﴾. (٢)

وقد جاء التنوع في الأسـلوب، وفي مراعاة المخاطب بالخطاب المناسـب له لتنوع الموضوعات لكل من المرحلة المكية، والمرحلة المدنية، فثمة ارتباط وثيق بينهما، وقد أكد هذه القضـية وأشـار إليه الدكتور عدنان زرزور، يقول: ﴿ إن اختلاف الخصــائص الفنية لكل من الآيات المكية والمدنية نابع في الحقيقة من اختلاف الموضـوعات التي تضـمنتها كل واحدة من هذه الآيات،

(١) الحيوان: ٩٤/١

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن: ٢١٩/١ .

ومعلوم أن لكل موضـــوع حليته اللفظية التي تناســـبه، والتي قد لا تناســـب موضوعا آخر)). [1]

ومن خلال ما تقدم يتبين كيف تنوع القرآن في خطابه؛ بناء على تنوع المخاطبين به، وتعدد أحوالهم، ومن هنا كان آية في الإعجاز، وغاية في البلاغة والبيان في مراعاة المخاطب، وبيان حالته.

وحديثنا عن الخطاب هنا يأخذنا إلى الحديث عن المخاطب بالآيات في العهد المكي، وسأتناوله بشيء من التفصيل في هذا التمهيد ببيان خصائص المجتمع المكي.

(١) علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه: ١٤٤.

ثالثا: خصائص المجتمع المكي

من المهم جدا في هذا المقام: النظر في حال القوم الذين تنزلت عليهم هذه الآيات، فما خصـــائص المجتمع المكي، وما تميز به أفراده، فهو المنطلق لمعرفة خصـــائص الخطاب المكي، فقد نزلت الآيات لهم، فقد خُوطبوا بها، لعلهم يؤمنون بها وينقادون، ولعلماء القرآن المهتمين بمبحث المكي والمدني جهود مباركة في بيان خصائص المجتمع المكي، وبيان طبيعتهم، وما جُبلوا عليه، ومن هؤلاء الدكتور مناع القطان فله كلام نفيس في بيان طبيعة المشركين في العهد المكي، يقول:

﴿ فحيث كان القوم في جاهلية تعمي وتصم يعبدون الأوثان، ويشركون بالله، وينكرون الوحي، ويكذبون بيوم الدين... وهم ألداء في الخصومة، أهل مماراة ولجاجة في القرآن عن فصـــاحة وبيان حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة، وشهب منذرة، وحججا قاطعة، يحطم وثنيتهم في العقيدة، ويدعوهم إلى توحيد الأولوهية والربوبية، ويهتك أســـتار فســـادهم، ويسفه أحلامهم... فنجد في مكي القرآن ألفاظا شديدة القرع على المسامع، تقذف حروفها شرر الوعيد، وألسنة العذاب، فكلا الرادعة الزاجرة، والصاخة والقارعة والغاشـية والواقعة، وألفاظ الهجاء في فواتح السـور، وآيات التحدي في ثناياها، ومصـير الأمم السـابقة... كل هذا نجده في خصـائص القرآن المكي، وحين تكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورســـله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشـره... حين تكونت هذه الجماعة ترى الآيات المدنية طويلة المقاطع، تتناول أحكام ا لإسـلام وحدوده... وتضـع قواعد المجتمع،

وتحدد روابط الأســـرة، وصـــلات الأفراد... وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني﴾. (١)

ولا غرو أن تأتي الآيات في العهد المكي قوارع زاجرة، وشـــهب منذرة، وألفاظ شـديدة القرع على المسـامع تقدف حمم الوعيد، وألسـنة اللهب ﴿ فقد كان أهل مكة قوما عبّاد أصـنام، غلاظ الأكباد، قساة القلوب، جفاة الطباع، فكانت معارضـتهم للدعوة الإسـلامية في بدايتها معارضـة عنيفة، ثم أخذت تزداد عنفا مع تقدم الدعوة، وتزايد عدد المؤمنين بها...وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان ولا حجة لهم في ذلك إلا إنهم وجدوا آباءهم لها عابدين... ومن هنا كان موقفهم من الدعوة عاطفيا لا ســـلطان للعقل عليه، وكان صـــدرهم للنبي – عليه الصـــلاة والســـلام – قائما على انفعالات وجدانية لا يحكمها تفكير، ولا يتحكم فيها منطق، وكان رفضـــهم للدين الجديد لا يعتمد على حجة أو برهان، وإنما يعتمد على ميراث من التقاليد الضالة التي ورثوها عن أسلافهم الأقدمين ﴾. (٢)

وبعد هذا التمهيد، وهذا الحديث عن خصـــائص القوم في العهد المكي الذين تنزلت عليهم هذه، وبعد بيان بلاغة القرآن الكريم في مراعاة حال المخاطبين بها، أتنقل إلى مباحث هذا البحث، في بيان خصـــائص الخطاب المكي في سورة الشرح .

(١) مباحث في علوم القرآن: ٥٢ .

(٢) دراسات في القرآن والحديث: ٦١.

المبحث الأول: الخصائص الموضوعية لسورة الشرح:

سورة الشرح:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾ .

وهي مكية باتفاق العلماء[١]، ولذا توافرت فيها خصائص السور المكية: الموضوعية والأسلوبية، كما سأبين ذلك في هذا المبحث والذي يليه.

نزلت بعد سورة الضحى[٢]، والمناسبة بين السورتين ظاهرة وجلية، وقد أشار إلى هذا الارتباط الوثيق بينها السيوطي في كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) يقول: ﴿ هي شديدة الاتصال بسورة الضحى؛ لتناسبهما في الجمل﴾[٣]، ثم يعلل هذا الاتصال الوثيق، بقوله: ﴿ والذي دعاهم إلى ذلك هو أن قوله (ألم نشرح) كالعطف على قوله (ألم يجدك يتيما فآوى) ... وفي هذا دليل على اتصال السورتين معنى﴾[٤]، ولذا فقد رُوي عن ﴿ طاوس وعمر بن عبدالعزيز أنهما كانا يقولان هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم، والذي دعاهما إلى ذلك هو: أن قوله (ألم نشرح) كالعطف على قوله (ألم يجدك يتيما ﴾[٥]،

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٤٩٦/٥، و: التحرير والتنوير: ٤٠٧/٣٠

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١٩٣/١.

(٣) تناسق الدرر في تناسب السور: ١٦٩

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور: ١٦٩ .

(٥) التفسير الكبير: ٢٠٥/٣٢ .

وقد ذكرت الدكتور عائشة بنت الشاطئ ارتباط سورة الشرح بسورة الضحى بل واقترانها بها، وعللت ذلك بقولها: ﴿ لما يبدو من المناسبة بينهما في سياق تعدد النعم بين قوله في سورة الضحى (ألم يجدك يتيما فآوى) وقوله في الشرح (ألم نشرح لك صدرك)﴾ (١)

وعند تأمل السورتين، وإمعان النظر فيها يتبين ما بينهما من ارتباط وصلات، فسورة الشرح متممة لما قبلها، وامتداد لها في موضوعاتها، ﴿فكلتاهما عرض لما أنعم الله به على النبي وتذكير له بهذه النعم وتوجيه له إلى ما ينبغي أن يؤديه من حق عليه، وهكذا شأن كل نعمة ينعم الله بها على الانسان لا تتم إلا بالشكر للمنعم وبالإنفاق منها على كل ذي حاجة اليها ﴾ (٢)

وقد أبان البقاعي وجه العلاقة بينهما، فذكر أن بينهما إجمالا وتفصيلا، فقد جاءت سورة الشرح بتفصيل ما أُجمل في سورة الضحى، ففيها أمر بالتحدث بنعم الله التي أنعم بها عليه في قوله: (وأما بنعمة ربك فحدث)، وفي سورة الشرح تفصيل لهذه النعم، وتعداد لها.(٣)

ومن المفسرين من يرى أن سورة الشرح لم تقف عند حد التفصيل والبيان لما أُجمل من النعم التي خص الله بها رسوله، بل فيها مزيد من النعم، وذكر لنعم أخرى تفضل الله بها عليه، يدل على ذلك قول صاحب التفسير الوسيط: ﴿ وكما عدد الله لنبيه بعض نعمه العظيمة عليه في سورة الضحى جاءت

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم: ٥٧/١ .
(٢) التفسير القرآني للقرآن: ١٦٠٤/١٦ .
(٣) انظر: نظم الدرر: ١١٥/٢٢ .

سورة الشرح لتسوق نعما أخرى منه تعالى عليه – صلى الله عليه وسلم– حاثا إياه على شكره؛ ليزيده منها﴾ (١)

هذا ما يتعلق بمناسبة السورة بما قبلها، وارتباطها الوثيق بها، أما ما يتعلق بمضمونها ومقصودها وغرضها فهو بيّن جلي لمن نظر وأمعن، وفكر فيها وتمعن، وممن أطال نظره وأنعم فكره، ففيها كما – يذكر الإمام الطبري– تذكير للنبي –عليه الصلاة والسلام– بما حباه الله من النعم، وبيان إحسانه إليه، ودعوة له إلى شكر المنعم على ما أنعم به وتفضل؛ ليستوجب بذلك المزيد منه، والإحسان إليه(٢)،

وقد ذكر هذا الغرض محمد الطاهر بن عاشور وزاده بسطة وتفصيلا، يقول: ﴿ احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله بلطف الله له، وإزالة الغم والحرج عنه، وتفسير ما عسر عليه، وتشريف قدره؛ لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتا له بتذكيره سالف عنايته به، وإنارة سبيل الحق، وترفيع الدرجة؛ ليعلم أن الذي ابتداه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماضٍ يعمله النبي، واتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسرا ،كدأب الله –تعالى– في معاملته فليتحمل متاعب الرسالة، ويرغب إلى الله عونه ﴾ (٣)

ولذا فقد أبانت السورة عِظم مكانة الرسول –عليه السلام–، وجليل قدره، ومقامه الرفيع عند رب مولاه، فقد أعلى ذكره، وشرح صدره(٤)، كما أن فيها

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٥/، ٤٣٥ .
(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٩٢/٢٤ .
(٣) التحرير والتنوير: ٤٠٧/٣٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم: جزء عم: ١/ ١٢٥.

تطمينا لنفسه الشريفة، وتثبيتا لقلبه الطاهر -عليه الصلاة والسلام-، بتعداد نعم الله عليه، وببيان عنايه الله به[1]، ووعد منه سبحانه لنبيه أن نعمه ستحيط به من كل جانب، وأنها ستتوالى عليه، فهو يذكره بما أنعم عليه، ويعده بالمزيد، فهو تثبيت له، واطمئنان بأنه حاضره سيكون خيرا من ماضيه، فسيرفع الله قدره، ويعلى شأنه في حاضره ومستقبله[2]،

ومن خلال ما تقدم يتبين مقصود السورة ومضمونها، فقد ﴿ ابتدأت بالحديث عن نعم الله العديدة على عبده محمد -صلى الله عليه وسلم- وذلك بشرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان، وعصمته من الذنوب والآثام، وتيسير أعباء النبوة عليه حتى أدى الأمانة وبلغ الرسالة ... ثم تحدثت كذلك عن إعلاء منزلته -عليه السلام-، والتنويه بما بلغه من تكريم وتعظيم حيث جعله مذكورا على لسان كل مؤمن مقرونا باسمه جل وعلا... ثم طمأنت الرسول وهو ومن معه يقاسي الشدائد والأهوال من كفار مكة طمأنته الى ما ينتظره من الفرج والنصر القريب على الأعداء... وختمت السورة بتذكير الرسول بما يجب عليه من بعد الفراغ من أمر الدعوة، ومقتضيات الجهاد، وذلك ببذل الجهد في عبادة أخرى بحيث لا يخلى وقتا من أوقاته منها متجها إلى ربه وحده بمسائله وحاجاته﴾ [3]

هذا ما يتعلق بهذه السورة من حيث مضمونها ومناسبتها لما قبلها، والغرض الذي جاءت لبيانه وتحقيقه، ولم يكن حديثي عنها في هذا المبحث مقصودا

---

(١) التفسير الحديث: ٥٥٨/١ .

(٢) انظر: تفسير المراغي: ١٠٠/٣٠.

(٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم: ١٩٥٢/١٠.

لذاته، بل هو توطئة للغرض الرئيس من هذا البحث، وهو المبحث الذي يليه، وهو بيان خصائص الخطاب المكي فيها، وبيان أن تلك الخصائص التي توافرت فيها كانت متوافقة مع هذه الأغراض، محققة لتلك المقاصد، متوافقة كذلك مع طبيعة هذا العهد المكي، ومع الأجواء التي تنزلت فيها هذه الآيات، فجاءت محمَّلة بخصائص الخطاب المكي في كلماته وتراكيبه، وفي صوره وأساليبه.

المبحث الثاني: الخصائص الأسلوبية للخطاب المكي في سورة الشرح

يكاد يكون كل ما تقدم توطئة لهذا المبحث، وتنظير له، وهذا المبحث هو الغرض الرئيس من هذا البحث، كما أنه يمثل الجانب التطبيقي لهذه الدراسة، كما أن هذه الدراسة وأمثالها تعد التوظيف الحقيقي لمبحث المكي والمدني، وقد أكد هذه القضية، وأشار إليه المهتمون بالدراسات المتعلقة بالمكي والمدني، ومن أولئك الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالرحمن الشايع يقول – بعد أن ذكر ضوابط السور المكية –: ﴿ ومن تمام الفائدة تلمس أسرار هذا الارتباط بين تلك السور والألفاظ وبين السور المكية، واطرادها فيها، واقتصارها عليه، وصلة ذلك بأحوال الدعوة، وأحداث السيرة في الفترة المكية، وأثر ذلك في تفسير الآيات، وإدارك المعاني والهدايات لها ﴾. (١)

كما تعد هذه الدراسة وأمثالها استثمارا للجهد العظيم الذي بذل العلماء قديما وحديثا في بيان المكي والمدني لسور القرآن الكريم، فلا يخفى ما بذله علماء المختصون في المكي والمدني، وبيان ما اختص به كل خطاب، فقد نال ﴿ عناية فائقة فتتبعوا القرآن آية آية، وسورة سورة؛ لترتيبها وفق نزولها، مراعين في ذلك الزمان، والمكان، والخطاب، لا يكتفون بزمن النزول، ولا بمكانه، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ﴾ . (٢)

ومن هنا جاءت هذه الدراسة، وفكرة هذا البحث؛ في بيان ما تميز به الخطاب المكي في سورة الشرح، فهي استجابة لدعوات المختصين في علوم القرآن بالاهتمام بالمكي والمدني، كما أنها دراسة تطبيقية لسورة مكية للنظر

(١) المكي والمدني في القرآن الكريم: ٤٠ .

(٢) مباحث في علوم القرآن: ٥٩ .

في خصائصها وما تميزت به، وبيان كيف جاءت تلك الخصائص الأسلوبية متوافقة مع خصائصها الموضوعية، ومع مضمون السورة، ومقصودها الأعظم، وبيان مدى ملاءمتها للأجواء المحيطة بها، وتوافقها مع من خُوطب بها في هذا العهد المكي.

وفيما يأتي تفصيل لهذه الخصائص الأسلوبية المتوافرة في سورة الشرح، بيان مدى توافقها للمعهد المكي، يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾

تعد سورة الشرح نموذجا لخصائص الخطاب المكي؛ لما توافر فيها من ألفاظ وأساليب تتوافق مع مضمونها، وتحقق الغرض المقصود منها، وتتوافق مع طبيعة مرحلة الدعوة، والعهد المكي، ومن المهم جدا أن يكون تحت نظر الدارس مضمون السورة ومقصودها، ومعرفة المخاطب بها؛ إذ الألفاظ وكذلك الأساليب طوع للمعنى، تسعى لتحقيقه وإبرازه، ولذا أبنتها وتكلمت عنها في المبحث السابق.

وبالنظر إلى هذه السورة وموضوعاتها أجد أنها تنقسم إلى ثلاثة موضوعات رئيسة، جاء كل مقطع محملاً خصائص السور المكية: الموضوعية والأسلوبية، وهذه الأقسام الثلاثة على النحو الآتي:

القسم الأول: قوله – تعالى –: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

القسم الثاني: قوله – تعالى –: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾

القسم الثالث: قوله – تعالى –: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾

وقد تجلت تلك الخصائص من مفتتح السورة في قول الله – تعالى – ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ من خلال الاستفهام في قوله (أم نشرح) بدلالاته البلاغية، ومن خلال الغرض المقصود منه، فقد جاء الاستفهام بهذا الغرض متوافقا مع غرض السورة ومقصودها، وقد تضمن هذا الاستفهام إنكارا وتقريرا، أو هو إنكار أفاد تقريرا، يدل على ذلك قول الزمخشري ﴿ اسفتهم عند انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح وإيجابه﴾ [١]، وقد أشار إلى هذا المعنى أيضا أبو السعود فذكر أن ثبوت الشرح ناتج من ﴿التعبير بالاستفهام الإنكاري عن انتفائه؛ للإيذان بأن ثبوته من الظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير بلى﴾ [٢]، فقد دخل الاستفهام على النفي، فأفاد غرض التقرير، فصار المعنى قد شرحنا لك صدرك[٣]، والغرض من هذا التقرير امتنان وتذكير له –صلى الله عليه وسلم– ﴿ أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم، وإنقاذهم من النار، ورفع شأنهم بين الأمم؛ ليدوم على دعوته العظيمة نشيطا، غير ذي أسف ولا كمد ﴾ .[٤]

ومجيء الاستفهام بهذا الغرض يكاد يكون خاصية من خصائص الخطاب في العهد المكي، وقد أدرك هذا الملحظ الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، وله دراسات مفيدة في خصائص الخطاب القرآني، فذكر أن ثمة صيغا وتعبيرات مكية، وردت في العهد المكي، فكانت من خصائصه الغالبة، ومن

(١) الكشاف: ٢٦٦/٤

(٢) إرشاد العقل السليم:١٧٢/٩

(٣) انظر: فتح القدير: ٤٦١/٥

(٤) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠٨

تلك الأساليب الاستفهام حين يدل على غرض بلاغي، يقول: ﴿والذي يلقي نظره على صيغ الاستفهام في القرآن يمكن أن يلحظ أن مجيئها فيه للغرض الأصلي من الاستفهام إنما هو في مواضع قليلة، بينما يعد خروجها عن هذا الغرض لأداء أغراض أخرى هو الغالب الأعم ﴾ (١)، ومن هنا فقد تجلت خصائص الخطاب المكي في استفتاح سورة الشرح بأسلوب الاستفهام، من خلال دلالته على غرض التقرير، ومن هنا جاء الاستفهام في هذه السورة تأكيداً وتقريراً لخصائص الخطاب المكي التي تميزت بها سورة الشرح؛ دلالة على ما يتميز به أسلوب الاستفهام، وما يؤديه من وظائف وأغراض تتطلبها الدعوة في العهد المكي، سواء كانت متعلقة بالرسول -عليه الصلاة والسلام-، أو بالناس جميعا: المؤمنين والكافرين.

بل إن افتتاح السور بأسلوب الاستفهام تكاد تكون خاصية من خصائص الخطاب المكي، فقد ورد ذلك في ست سور، كلها سور مكية، ومنها سورة الشرح(٢)، وجزء من هذه السور المخاطب بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم- كما في سورة الشرح، والسبب في ذلك: ﴿الحضور – أو الاستحضار- البارز لذاتية الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – أمام ربه في المرحلة المكية، مع تنوع زوايا الحضور بالطبع حسب تنوع ما يتعلق به من الأساليب والسياقات﴾ (٣)

(١) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين: المكي والمدني: ١٢٤.
(٢) المصدر السابق: ١٦٣
(٣) المصدر السابق: ١٦٤

فالغرض من الاستفهام: التقرير بالامتنان، وبيان ما خصه الله به رسوله محمدا – صلى الله عليه وسلم – وتفضل عليه، والمتأمل في ألفاظ الامتنان الواردة في هذه السورة أنها بصيغة الجمع:

(نَشْرَحْ - وَوَضَعْنَا - وَرَفَعْنَا) والجمع دلالة على التعظيم، وهو – سبحانه – لا يعظم نفسه إلا على أمر عظيم، وقد دلّ هذا الجمع على عِظم هذه الأفعال، ومنه يتبين معنى الامتنان، وعظيم نفعه وأثره على الرسول – صلى الله عليه وسلم –،وقد زاد هذا الامتنان أثرا وتأثيرا أن كان الشرح للصدر، والوضع للوز، والرفع للذكر

وفي اختيار الصدر دون غيره من الأعضاء؛ لكونه محلا لأحوال النفس كلها، ومستقرا لما يصيب الإنسان من أفراح وأحزان[1]، فالصدر هو الذي ينشرح وينبسط، وهو الذي يضيق وينقبض، ومنه يتجلى معنى الامتنان ويتأكد، ولذا فقد تعددت أقوال المفسرين في بيان معنى انشراح صدره، وفي تعدد الأقوال وتكاثرها تحقيق لمعنى الامتنان، وبيان للطف الله بعبده ونبينه محمد – صلى الله عليه وسلم– فمعنى شرحنا صدرك كما يذكر الزمخشري أي: ﴿فسحناه حتى وسع هموم النبوة، ودعوة الثقلين جميعا، أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض لك بها كفار قومك وغيرهم، أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل﴾ [2]، ويضيف السعدي معنى آخر للمراد بشرح صدره –عليه السلام– يقول: ﴿أي نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ١٧٢/٩

(٢) الكشاف:٤/ ١٦٤

الآخرة، وتسهيل الخيرات فلم يكن ضيقا حرجا حتى لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطا﴾ [1]

وقد أعقب شرح صدره بالإخبار بأن وضع عنه وزره، ونظم الآية ومعناها ظاهر الامتنان به –عليه السلام والسلام–، والمعنى: أن غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو امتنان عظيم[2]، فقد أثقلت كاهله، فناء بحملها، وضاق بها، ففرج عنه ربه، فوضع عنه الأوزار والآثام.

وفي قوله (ورفعنا لك ذكرك) امتنان وفضل له –عليه الصلاة والسلام– يبدأ ولا ينتهي، فقد أعلى الله ذكره، وفي إضافة الذكر إلى كاف المخاطب في قوله (ذكر) تشريف وأي تشريف! وامتنان وأي امتنان! ولأنه من الله فقد نال شرف هذا الذكر، فبقي ذكره خالدا مخلدا إلى قيام الساعة، فقد قرن ذكره – سبحانه – بذكره عليه الصلاة والسلام، وبيان هذا الامتنان ومعناه: ﴿أي أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه الرسول – صلى الله عليه وسلم– كما في الدخول في الإسلام، وكما في الآذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد –صلى الله عليه وسلم– وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره بعد الله –تعالى–، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيا عن أمته﴾ .[3]

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٥/ ٤٣١

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٥٥٦/٤

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٥/ ٤٣١

ولم يكن ذكر معنى هذه الآيات مقصودا لذاته، بل الغرض من ذلك: بيان ما تضمنته من عظيم الامتنان لرسول الله، ومعرفة ما منّ الله به عليه في العهد المكي، وبيان كيف جاءت خصائص الخطاب المكي متوافقة مع مضمونها، وكيف أبرزتها في أبلغ عبارة، وفي أجمل صورة.

وقد جاءت الأساليب البلاغية الأخرى متضافرة بما توافر فيها في إظهار هذا الامتنان، وفي تحقيق معنى التقرير، تجلى ذلك من خلال أسلوب التقديم والتأخير، جاء تقديم الجار والمجرور في قولك (لك)، وكذلك في الآية الأخرى في قوله (عنك) مؤكدا على هذه الحقيقة ومقررا لها، وقد ذكر الزمخشري هذا التقديم، وبيّن أسراره البلاغية، يقول: ﴿ فإن قلتَ أي فائدة في زيادة (لك) والمعنى مستقل بدونه؟ قلتُ في زيادة (لك) ما في طريقة الإبهام والإيضاح، كأنه قيل: ألم نشرح لك، ففُهم أنَّم مشروحا، ثُم قيل: صدرك، فأوضح ما عُلم مبهما، وكذلك (لك ذكرك)، (وعنك وزرك) ﴾ [1]

بل إن خطاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في العهد المكي له خصائصه التي تميزه عن غيره، وتحفه بكثير من الأسرار والأساليب، كما تجلت في هذه السورة، فقد جاء التقديم دالا على هذه الحقيقة، ومؤكدا لها، بتقديم الضمير المتعلق برسول الله –صلى الله عليه وسلم–، وفي ذكر تعجيل بالمسرة، وبما وعده ربه ومولاه من الفضائل والوعود التي يقر بها عينه، ويطمئن بها فؤاده.

وفي تأخير لفظة (صدرك)، وكذلك لفظة (وزرك) تشويق لها، فقد جاءت بعد ترقب وانتظار فتمكنت أفضل تمكن في قلب المخاطب وعقله، وقد أفاد

(١) الكشاف: ٢٦٦/٤

هذا التقديم والتأخير إبهاما وتوضيحا؛ وذلك أن ﴿ ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام؛ للتشويق فإنه لما ذُكر فعل نشرح علم السامع ان ثَمَّ مشروحا، فلما وقع قوله (لك) قوي الإبهام فازداد التشويق؛ لأن (لك) يفيد معنى شيئا لأجلك فلما وقع بعده قوله (صدرك) تعين المشروح المترقب فتمكن في الذهن كمال تمكن﴾ (١)، وفي ذلك مزيد من التفضل والامتنان، ومعنى شرحنا هنا أي: ﴿ نورناه جعلناه فسيحا رحيبا واسعا، وكما شرح صدره كذلك جعل شرعه فسيحا واسعا سمحا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق﴾ (٢)

ففيه مزيد تكريم له – عليه الصلاة والسلام –وتعجيل بإدخال المسرة إلى قلبه، بأن الشرح له ومن أجله، وأن منافعه ستعود عليه بالخير في أول أمره وآخره.(٣)

وهكذا تضافرت الأساليب البلاغية بما توافر في كل واحد منها في إبراز مقام الرسول – عليه الصلاة والسلام، وبيان ما خصه الله به من الفضائل والنعم، وفي ذلك توظيف لهذه الأساليب البلاغية في إظهار ما تضمنته من معانٍ، وفي ذلك إبراز للمضامين التي تضمنتها هذه السورة المكية، وبذلك تحققت الأغراض، وظهرت المقاصد.

ثم ذكر – سبحانه – بعد هذا التفضل والامتنان قوله: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦ ﴾

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠٩

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٥٦/٤ .

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم: ١٧٣/٩، والتحرير والتنوير: ٣٠/ ٤٠٩

وقد أشار كثير من العلماء إلى صلة هاتين الآيتين مع ما قبلها، وبينوا كذلك علاقتها بموضوع السورة ومضمونها، وبيان أثرها بموضوع الحفاوة والامتنان برسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فهي تأكيد وتقرير لما قبلها، وتتمة للفضائل قبلها، وقد أبان الزمخشري علاقة هذه الآيات بما قبلها، يقول: ﴿ فإن قيل: كيف تعلق قوله ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴾ بما قبله؟ قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر والضيقة، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام؛ لافتقار أهله واحتقارهم، فذكر الله ما أنعم به عليه من جلائل النعم ﴾.[1]

وقد توافر في هاتين الآيتين خصائص الخطاب المكي، يظهر ذلك جليا في التوكيد الذي جاء في صدر كل آية منها في قوله (فَإِنَّ) وقوله (إِنَّ)، وسبب هذا التأكيد وبلاغته: هو الاهتمام بمضمونه، وتأكيد معناه، وللتوكيد – كما هو معلوم – مقاماته التي يأتي فيها، بناء على تطلب المقام لها، لتحقيق الأغراض المنوطة به، وللتأكيد أغراضه المتعددة والمتنوعة، منها ما يتعلق بالمخاطب، ومنها ما يتعلق بالخبر نفسه، ويرتبط بمضمونه، كما هو في هذا الآية، وللدكتور محمد محمد أبو موسى كلام نفيس ذكر فيه هذه الأغراض، وبينها أتم بيان، فذكر ﴿ أن التأكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم، ومنها: إماطة الشبهة لغرابة الخبر، وحاجته إلى التقرير والتحقيق، وقد يكون التوكيد مظهراً لتعلق النفس بالخبر واهتماماً به، وأنه جدير عندها بالقبول والتحقيق، وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس، وحسم أمالها وأطماعها، وقد يكون لتقرير وعد الله وتثبيته حتى تزداد النفوس اطمئناناً إليه، ووثوقاً به، فلا تلتفت إلى أماني الشيطان ووعده لأوليائه، وقد يتجه المتكلم إلى تصوير

(١) الكشاف: ٢٦٦/٤

ما في نفوس الآخرين من خواطر وأفكار فيأتي تصويره في عبارات مؤكدة ليشير بهذا إلى أن هذه الخواطر والأفكار متقررة في النفوس ومتمكنة منها ﴾ [١]، إلى غير ذلك من الأغراض.

ولذا فإن الغرض من تأكيد الخبر في قول الله – تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦ ﴾ هو الاهتمام بالخبر وبمحتواه[٢]، ولذا فقد أصاب هذا التوكيد المحز، وحقق المراد، ببيان أن مع العسر يسرا، ولذا فقد تمكن هذا المعنى في نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وتقرر، وذلك هو التوكيد، وذلك هو الغرض منه، فهو – كما يذكر العلوي – ﴿ تمكين الشيء في نفسه، وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك، وإماطة الشبهات، عما أنت بصدده، وهو دقيق المأخذ، كثير الفوائد ﴾ . [٣]

ومن هنا يظهر أهمية أسلوب التوكيد في هذا المقام، وسر وروده في العهد المكي، وسبب توافره في مخاطبة الرسول عليه الصلاة والسلام، ففيه امتداد لامتنان رب العالمين برسوله، وهو صورة من صور لطفه به، ومزيد عنايته به، والمعنى: اعلم أن ﴿مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسرا ورخاء بأن يظهرك الله عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به﴾ [٤]، وقد ظهر هذا المعنى وتأكد من خلال تأكيد الخبر، من خلال تنكير لفظة (يُسۡرًا

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٤١٤ .
(٢) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٤١٤ .
(٣) المصدر السابق : ٢ / ١٧٦ .
(٤) تفسير البغوي: ٤/٥٠٢

) في الموضعين، ففي تنكيرها تعظيم له، وتفخيم لشأنه[1]، فهو يسر عظيم، وأي يسر!، وكيف لا يكون عظيما وهو من رب العالمين؟! وكيف لا يكون عظيما، وقد امتن به رب العالمين، وقد يكون الغرض من التنكير: التكثير، ويكون المعنى – كما يذكر – أبو السعود–: ﴿فإن مع العسر يسرا كثيرا﴾ [2]، ولا تعارض بين هذين المعنين، فهو يسر عظيم، ويسر كثير، وهذا هو المناسب لغرض السورة ومضمونها، ومن خلال هذه المعاني المتعددة يظهر معنى الامتنان واللطف برسول الله، وهو المناسب للعهد المكي الذي نزلت فيه هذه السورة، ومن هنا جاءت هذه الأساليب البلاغية، وهذا الخطاب المكي متوافقا مع طبيعة المرحلة، متناغما مع ظروف الدعوة وأحوالها.

وفي تعريف لفظة (العسر) بيان لعظمة اليسر، وبيان مكانه، وإظهار لأثره وتأثيره، ففي تعريف بالألف واللام؛ دلالة على العموم واستغراق جميع أنواعه، فيشمل العسر كله، وفي هذا بيان لعظمة اليسر المصاحب له، وفي هذا ﴿دلالة على أنه كل عسر وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ فإنه في آخره التيسير ملازم له﴾ [3]،

وفي مجيء هذه التوكيدات وتوافرها في هذه الآية إظهار وتقرير لمضمون هذا الخبر، وللغرض الذي جاءت له، فقد جاء الخبر بهذه المؤكدات إظهاراً لعناية الله بعبده ورسوله ولطفه به، فهو الذي يتولى أمره، ويدافع عنه، فقد جاءت الآية تثبيتاً له، وشرحاً لصدره بأنه ما تركه ولا قلاه، ومن هنا تتجلى بلاغة هذا التوكيد، وحسن استخدام القرآن له في العهد المكي؛ وذلك لمجيئه

(١) انظر: الكشاف: ٢٦٦/٤،

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٧٣/٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤٣٢/٥ .

في المواضع التي تتطلبه وتستدعيه، وذلك لما يتركه هذا التوكيد من الأثر في السياق الذي ورد فيه، وفي المعنى المراد تقريره وتأكيده .

ولم تقف بلاغة هذا الخطاب عند هذا، بل تضافر معه أسلوب آخر له حضوره في العهد المكي، وهو أسلوب التكرار، وذلك في قوله – تعالى –﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٦﴾، ولهذا التكرار أسراره البلاغية، ونكته البيانية، وله ارتباطه الوثيق، وصلته المتينة بالعهد المكي، فهو أسلوب ظاهر فيه، وخاصية من خصائصه الأسلوبية، أما بلاغته والغرض منه، فقد بينه كثير من المفسرين في معرض حديثهم عن هذه الآية، وفي تفسيرها، فذكروا أن الغرض من التكرار: توكيد الوعد، وتعظيم الرجاء [١]، وفي ذلك تقرير لمعناه في النفوس، وتمكين لمضمونه في القلوب[٢]؛ لتتعلق بوعد ربها، وتستبشر به، وأن اليسر كائن لا محالة، وأنه محيط بالعسر من جميع جوانبه.

ومن هنا جاء التكرار دلالة على هذه الأسرار البلاغية، وتأكيدا لها، ومنه يتجلى قيمة هذا الأسلوب، ويظهر معه سبب توافره في العهد المكي حتى صار خاصية من خصائصه الأسلوبية،

وقد أشار إلى هذه الحقيقة وقررها كثير من المهتمين بدراسة المكي والمدني في القرآن الكريم، ومن هؤلاء: الأستاذ الدكتور محمد الشايع فقد ذكر جملة من الخصائص الأسلوبية للسور والآيات المكية، وذكر منها: تكرار بعض الجمل والكلمات[٣]، وكذلك الدكتور عدنان زرزور فقد ذكر أن من خصائص

(١) انظر: البغوي: ٤ / ٥٠٢

(٢) انظر: الكشاف: ٤/ ٢٦٦ .

(٣) انظر: المكي والمدني: ٤١ .

آيات العهد المكي البيانية والأسلوبية: أسلوب التكرار[١]، وممن ذكر هذه الحقيقة وأكدها كذلك الدكتور السيد عبدالمقصود جعفر، يقول: ﴿ولا يفوتني التنبيه على أن التكرار في حد ذاته يعدُّ خاصية أسلوبية بارزة من خصائص القرآن بوجه عام، والمكي منه بوجه خاص، كما أن آفاقه ووظائفه داخل دائرة القرآن تعطيه أبعاداً أرحب، وأعمق بكثير مما هو معروف له خارج هذه الدائرة﴾. [٢]

ثم خُتمت السورة بقول الله – تعالى – ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾، وقد جاء هذا الختام متعلقا بما قبله، مقررا مضمونه، ومؤكدا له، يتبين تلك العلاقة من خلال حرف الفاء في قوله (فَإِذَا) فهي للتفريع، فقد تفرغ ما بعدها على ما قبلها، فهو ﴿تفريع على ما تقرر من التذكير باللطف والعناية ووعوده وبتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون ملل ولا ضجر﴾. [٣]

وقد كشف الزمخشري علاقة هاتين الآيتين بما تقدمها، يقول: ﴿فإن قلتَ كيف تعلق قوله ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾، بما قبله؟ قلتُ: لما عدد عليه نعمه السالفة ووعده الآنفة بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها،

(١) انظر: علوم القرآن: ١٤٤

(٢) مقدمة في خصائص الخطاب القرآني: ١٣٥

(٣) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤١٧

وأن يواصل بين بعضها وبعض، ويتابع ويحرص على أن لا يخلي وقتا من أوقاته منها، فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة ﴾. (١)

ومن خلال دلالة حرف الفاء على التفريع تبين علاقة هاتين الآيتين بما قبلها، وتبين أن لها دلالة بمضمون ما تقدمها، وارتباطا وثيقا بغرض السورة ومقصودها، ولذا جاءت هاتان الآيتان محملتين بكثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للآيات في العهد المكي، يتجلى ذلك فيما يأتي:

جاء الخطاب في هاتين الآيتين للرسول -عليه الصلاة والسلام-، فهو المخاطب، وهو المأمور، وهو المعني بهذه الأوامر، وخطابه – عليه الصلاة والسلام – ظاهرة أسلوبية في القرآن الكريم، تستحق مزيدا من النظر، ومزيدا من التأمل، ففيها كثير من الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، وقد جاءت مخاطبته متوافقة مع كل مرحلة، متوافقة كذلك مع مضمونها، والغرض منها، فالخطاب المكي مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مغاير لمخاطبته في العهد المدني، وهو أمر يستحق الدراسة والتأمل.

وفي هاتين الآيتين جاء خطابه عليه الصلاة والسلام – بصيغة الأمر: فانصب، فارغب، والأمر فيهما على بابه، طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وهذا الفعل منه عليه الصلاة والسلام كالشكر والاعتراف بفضل الله عليه، وبالنعم التي منّ بها عليه، والمعنى- كما يذكر أبو السعود-: ﴿ أي فاجتهد في العبادة، واتعب شكرا لما أوليناك من النعم السالفة، ووعدناك من الآلاء الأنفة ﴾. (٢)

(١) الكشاف: ٤: ٢٦٧

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٧٣/٩ .

من هنا يتبين أن لهذه الآيتين ارتباطا بما بالفضائل والمكرمات التي خص الله بها رسوله، التي ذكرت في هذه السورة، ولذا فإن موضوعها من خصائص الخطاب المكي الذي جاءت سورة الشرح في بيانه وإيضاحه .

والمتأمل في هاتين الآيتين يجد أن متعلق (فرغت) محذوف، لم يذكر، وقد ذكر الطاهر بن عاشور تقديره وبلاغته، يقول: ﴿ ولم يذكر هنا متعلق (فرغت)، وسياق الكلام يقتضي أنه لازم أعمال يعملها الرسول، كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة، وما يحف بها، فالمعنى إذا أتممت عملا من مهام الأعمال فاقبلْ على عمل آخر؛ بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة ﴾. (١)

وفي قوله ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَبۡ ۝٨ ﴾ تتمة لهذه الخصائص الموضوعية والأسلوبية، ففيها الأمر له –عليه الصلاة والسلام– أن يكون لربه راغبا، وقد جاءت لفظة (فارغب) بصيغة الأمر، وهو أمر على جهة الاستعلاء، لا يسع معه إلا الانقياد له، والالتزام به، والمعنى: أي ﴿وإلى ربك وحده فارغب أي أعظم الرغبة في إجابة دعائك، وقبول دعواتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا لعبوا، وأعرضوا عن ربهم، وعن ذكره فتكون من الخاسرين﴾. (٢)

ولأن المخاطب فيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؛ ولأن الغرض من السورة كلها: بيان فضل الله عليه، وامتنانه عليه بما حباه به، وخص به من الفضائل دون الناس جميعا جاء ختام السورة متوافقا مع هذا الغرض، متعلقا به أتم التعلق في قوله – تعالى –﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَبۡ ۝٨ ﴾ وقد جاء خطاب

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤١٦ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤٣٢/٥

هذه الآية متوافقا مع غرضها، وتضمنت كثيرا من خصائص الخطاب التي تميز بها العهد المكي، ففي الآية تقديم وتأخير، والتقدير بدون تقديم وتأخير: وارغب إلى ربك، وقد أفاد التقديم والتأخير القصر، ففيه أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله أن يقصر رغبته إليه دون سواه، دلالة على أهمية الرغبة، والالتجاء إليه، وأن تكون له وحده دون سواه، والمعنى ارغب إلى ربك ((لا إلى غيره تكون رغبتك؛ فإن صفة الرسالة أعظم صفات الخلق، فلا يليق بصاحبها أن يرغب غير الله تعالى)) .(١)

ولا غرو أن يأتي الأمر بقصر الرغبة إليه، فهو ربك، وقد أبرزت الإضافة هذا المعنى، وأكدت إليه في هذا السياق، وهي إضافة تشريف وتكريم، فشرف للمخلوق أن يكون عبدا لله، وأن يكون الله –سبحانه وتعالى– ربه وسيده ومولاه، فهو ربك الذي تولى أمرك، واعتنى بشأنك، ولطف بك، وامتن عليك، فمن شكر هذه النعمة، والاعتراف بهذه الفضائل أن تقصده رغبة ورهبة، وأن تتوجه إليه بالعبادة.

والمتأمل في الآية ونظمها يجد أن المقدم فيها لفظة (ربك) ولهذه اللفظة بدلالتها علاقة وثيقة بالعهد المكي وخصائصه، ففي لفظة الرب إشارة إلى الإقرار بالربوبية، وهو التوحيد الذي يقر به المشركون، ومن هنا يتبين سر وروده في العهد المكي كثيرا، فهو يتحدث عن الرب وهو السيد والمالك والمدبر والمتصرف في الأمور كلها، وهو أمر لا ينكره المنكرون، ويقر به حتى المشركون، ولكن ماذا بعد الإيمان بذلك والإقرار به، فيجب أن تكون العبادة له، والرغبة إليه، ومن هنا جاء أسلوب القصر في هذه الآية؛ ليدل على هذا

(١) التحرير والتنوير: ٣٠/ ٤١٨ .

المعنى، ويؤكد عليه، ففي القصر نفي وإثبات، نفي أن تكون الرغبة لغير الله تعالى، وإثباتها له سبحانه دون سواه، وفي ذلك تعريض بالمشركين، وتسفيه لأحلامهم، ومن هنا يتجلى سر اختيار هذه اللفظة، ووردها في العهد المكي؛ ففيها إشارة إلى استحقاقه بالعبادة والإخلاص له دون سواه؛ لأجل ربوبيته، فضلا عن إنعامه عليه، وتفضله عليه، وعلى الناس جميعا.

ومن الأساليب البلاغية المهمة في هذه السورة: أسلوب السجع، ويكاد يكون هذا الأسلوب من الخصائص الأسلوبية البارزة في العهد المكي، فحين نتأمل سورة الشرح، بتقسيماتها الثلاثة، وهي:

القسم الأول: قوله – تعالى –: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾

القسم الثاني: قوله – تعالى –: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾

القسم الثالث: قوله – تعالى –: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾

نجد أن السجع حاضر في كل آية من آيات هذه السورة، بل ازداد حضورا وأثرا وتأثيرا أن كل قسم له سجعه الخاص به، فكان ثمة تنوع وتعدد، فانعكس ذلك على أثره وتأثيره على السامع، وزادت بلاغته، وظهر حسنه وألقه، وللسجع أثره في الأسماع وفي النفوس؛ ﴿ لما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى القوية التي تطرب لها الأذن، وتهش لها النفس، وتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل، أو يخالطها فتور، فيتمكن المعنى في الأذهان، ويقر في الأفكار، ويعز لدى العقول﴾ .[1]

(١) علم البديع: ٣١٠ .

وليس السجع جرسا موسيقيا فحسب، بل هو جزء رئيس من المعنى، بدونه المعنى يقل وينقص، وله وظيفته في أداء المعنى بطريقة مؤثرة وبليغة، وهذا شرط مقرر ومتفق عليه عند البلاغيين، يدل على ذلك ويؤكده قول عبدالقاهر الجرجاني: ﴿وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا ولا سجعا حسنا حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه وتأهب لطلبه﴾.(١)

وكذلك هو السجع في القرآن الكريم، ولذا كان بليغا مؤثرا، وقد تجلى هذا الأمر، وهذه الخاصية في سورة الشرح، فكان فيها عاملا مهما، وأسلوبا مؤثرا في تقرير المعنى وتثبيته، فلم يكن حلية لفظية، بل كان وسيلة معنوية لتقرير المعنى وإبرازه، ولذا حضر السجع في السورة في آياتها كلها، وقامت عليه السورة، فكان له أثره في السمع وفي النفس، وتأثيره في القلب وفي العقل، فحسن معه لفظه ومعناه، وتقرر معه المعنى وتمكن في النفس خير تمكن، ومن هنا يتجلى سر توافره في العهد المكي، كما ظهر ذلك جليا في سورة الشرح، فكان خاصية بارزة من خصائص الأسلوب فيها .

ومن الخصائص الأسلوبية البارزة لسورة الشرح: هو تنوع الخطاب فيها: بين أسلوب الخبر والإنشاء، فقد تكوّنت سورة الشرح من ثمان آيات، الست الآيات الأولى: جاءت بأسلوب الخبر، وهي قوله – تعالى–: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾، فيما جاءت الآيتان الأخيرتان بأسلوب الإنشاء وذلك

(١) أسرار البلاغة: ١١

في قوله – تعالى–: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨ ﴾ .

ولكل أسلوب من هذين الأسلوبين: الخبري والإنشائي خصائصه المرتبطة بغرضه ومضمونه، وقد تضافر هذان الأسلوبان في إبراز خصائص الخطاب القرآني في العهد المكي، وفيما يأتي بيان ذلك وتفصيله .

فعند تأمل الآيات الواردة بالأسلوب الخبر نجد فيها تفضلا وامتنانا، ومزيد حنو وعناية ورعاية ولطف برسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وإخبار بما يسره في الحال والمآل: ففيها إخبار بشرح صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، ثم إخبار هو أقرب للبشارة أن مع العسر يسرا، وتكرار لهذه الحقيقة، واللافت للنظر فيها أن ألفاظها أرق من النسائم، بلغت الغاية في الرقة والعذوبة، وهي بذلك تشكل ظاهرة أسلوبية لخطاب الله لنبيه في العهد المكي.

أما القسم الآخر من السورة فقد جاء بأسلوب الإنشاء، فقد تغير أسلوب الخطاب، وتغير معه أساليبه البلاغية، فتغيرت كذلك ألفاظه؛ بناء على الغرض منها، واختلاف مضمونها، ولذا اشتدت عباراتها، وقويت ألفاظها، ففيها الأوامر، فجاء الأمر فيها على جهة الاستعلاء والقوة، وتوافر فيها أسلوب القصر بما يحمله من نفي وإثبات، وفيها لفظة (الرب) التي تذكر العبد بما عليه من طاعات وواجبات يجب عليها القيام بها لسيده ومولاه.

وهكذا تنوعت الأساليب وتعددت في هذه السورة، وتنوع معها الخطاب، وجاءت الأساليب البلاغية بناء على هذا التنوع، وقياما بمتطلبات البلاغة ومقتضاها، والذي أريد أن أقرره في هذه الدراسة حين الحديث عن الخطاب القرآني في العهد المكي أنه من الخطأ تعميم هذا الخطاب، ولا يصح التسليم المطلق بما يذكره بعض المهتمين بعلوم القرآن فيما يتعلق بالمكي والمدني بأنه خطاب يقوم على الزجر والردع، وينطلق من التهديد والوعيد، وأنه حمم

وقوارع وشهب، صحيح هذا، ولكنه نوع من أنواع، وخطاب من خطابات متعددة، ولذا فمن المهم: ربط الخطاب بالمخاطب وبمضمونه وبالغرض المسوق له، فخطاب رسول الله مغاير لخطاب غيره، وخطاب المشركين غير خطاب المؤمنين في هذه الحقبة الزمنية من عمر الدعوة، ولذا فالحق الذي لا مراء فيه ﴿ أن القرآن الكريم قائم على رعاية حال المخاطبين، فتارة يشتد، وتارة يلين؛ لِما يقتضيه حالهم سواء منهم مكيهم ومدنيهم، بدليل أنك تجد بين ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد، وتسامح وتسديد، وأخذ ورد، وجذب وشد... وإذا لُوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدة والعنف، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسول وأصحابه، والكيد لهم حتى أخرجوهم من أوطانهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم ﴾. [1]

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن: ١/٢١٤ .

الخاتمة

فالحمد الله على بلوغ الغاية، وعلى التمام والكمام في إعداد هذا البحث وكتابته، فها أنا أصـــل إلى منتهاها وخاتمته، والله أســـأل أن أكون حققت الغاية منه، فقد بذلت فيه الوسع والجهد، وما هو إلا توفيق الله وتسديده، وقد أفدت منه كثيرا، وخرجت بعدد من النتائج العلمية المتعلقة بهذا الموضـــوع، ومن أهمها ما يأتي:

أولا: أن المكي والمدني وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، فقد جاءت خصائص كل عهد: الموضوعية والأسلوبية بناء على تطلب المقام لها، وبناء على اختلاف المخاطب بها، وبناء على طبيعة كل مرحلة، وما تقتضيه وما تتطلبه، فصار القرآن بتلك الخصائص معجزا، تعذر معه الإتيان بمثله، أو بمعارضته.

ثانيا: أن المكي والمدني هو المجال الرحب، والميدان الفسيح، والجانب التطبيقي للبلاغة، فإذا كانت البلاغة مراعاة الكلام لمقتضى الحال، فإن المكي والمدني هو التطبيق الأمثل لها، ومن خلالها تتجلى هذه المراعاة، وتتبين منهما أن لكل قوم ما يخصهم من الخطاب، ومن ثم يأتي الخطاب بخصائصه المتعددة: الموضوعية والأسلوبية بناء على كل قوم، وتحقيقا للأغراض المنوطة بها.

ثالثا: سورة الشرح من أوائل السور التي نزلت في العهد المكي، فترتيب نزولها من سور القرآن: الحادي عشر، ولذا توافر فيها كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية للعهد المكي، وقد أبان هذا البحث كثيرا من تلك الخصائص، فذكر أغراضها والأسرار البلاغية المنطوية فيها.

رابعا: المخاطب في سورة الشرح هو الرسول – عليه الصلاة والسلام – في كل آياتها، وقد كشفت السورة بخصائصها المتعددة: طبيعة هذا الخطاب، وبلاغته، وما تميز به غيره، فللخطاب الخاص بالرسول عليه السلام من الخصائص ما يميزه عن غيره، وقد جاءت تلك الخصائص بناء على مقام النبوة، وبناء على المنزلة الرفيعة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم –.

خامسا: توافر في سورة الشرح بناء على غرضها وتحقيقا لمضمونها كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية، ففيها اللطف والامتنان البالغ برسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فتجلى فيها حسن العناية، وكمال الرعاية، وقد انعكس ذلك على خصائصها الأسلوبية، فجاء فيها الاستفهام بغرض التقرير، والتقديم لغرض العناية والاهتمام، والتأخير لغرض التشويق، وكان فيها التوكيد حاضرا، وأسلوب التكرار فيها بارزا، وكذلك القصر بما تضمنه من قوة ودلالات.

سادسا: برز أسلوب التقديم والتأخير كثيرا في هذه السورة، فكان من خصائصها البلاغية، فكان يقدم ما يتعلق بالرسول – صلى الله عليه وسلم– عناية بأمره، واهتماما بشأنه، وفي ذلك توافق مع طبيعة غرض السورة، القائمة على بيان ما خص الله به رسوله من المنزلة والفضل، ثم يكون التأخير لغرض التشويق، فتظل النفس متطلعة متلهفة لما سيأتي، فإذا جاء تمكن واستقر خير تمكن.

سابعا: للتوكيد أدواته ومقاماته وأسراره البلاغية، ولذا كان حاضرا في هذه السورة، وكان خاصية من خصائصها البلاغية، وفي التوكيد تقوية للمضمون، ومزيد اهتمام به، وفي الاهتمام بالخطاب ومضمونه اهتمام بمن خُوطب بها، وبيان لمقام النبوة، وإعلاء من مكانة رسول الله ﷺ

ثامنا: برز الأسلوب الخبري في سورة الشرح فكان من الخصائص الأسلوبية الظاهرة فيها، وقد تضمنت الأساليب الخبرية تفضلا من الله – سبحانه وتعالى – وامتنانا، ومزيد حنو وعناية ورعاية ولطف برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتنوعت صيغ هذا الأسلوب، وتعددت أضربه، وجاءت فيه أدوات التوكيد وفاء لمقام البلاغة، وتحقيقيا للغرض المسوق له.

تاسعا: من الخصائص البلاغية البارزة – أيضا –: أسلوب الإنشاء فقد بدأت السورة بالاستفهام، وانتهت بأسلوب الأمر، فجاءت ألفاظ السورة من خلال هذا الأسلوب مؤثرة بليغة، بناء على الغرض منها، واختلاف مضمونها، ولذا اشتدت عباراتها، وقويت ألفاظها.

وأدعو في خاتمة البحث المختصين بالدراسات القرآنية إلى الالتفات إلى المكي والمدني في القرآن الكريم، خصوصا فيما يتعلق بالجانب التطبيقي منه، ففي ذلك توظيف لجهد العلماء الكبير الذي بذلوه في خصائص كل من العهد المكي، والعهد المدني، وسيظل القرآن معجزا، ولن نحيط بوجوه إعجازه، ولكنها دعوة إلى التأمل والبحث الجاد.

والحمد لله رب العالمين أولا وأخرا

ثبت المصادر والمراجع

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د . ت).

٢. أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ .

٣. أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا، للدكتور عبدالغني محمد بركة، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ ١٩٨٣م .

٤. اِلإيضاح، للخطيب القزويني، دار إحياء الكتب الإسلامية، بيروت، (د . ت) .

٥. البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث .

٦. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة: ط: الثانية، ١٤٠٨هـ .

٧. التحرير والتنوير تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس:١٩٨٤ هـ

٨. التفسير الكبير: مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ – ١٩٩٠م

٩. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١٠. التفسير البياني للقرآن الكريم عائشة محمد عبدالرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف القاهرة، الطبعة السابعة .

١١. التفسير الحديث: المؤلف: دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية القاهرة: ١٣٨٣ هـ

١٢. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١٣. تفسير القرآن العظيم جزء عم، لعبدالملك بن محمد بن قاسم العاصمي دار القاسم للنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠ هـ ٢٠٠٩ م

١٤. التفسير القرآني للقرآن ، لعبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة .

١٥. تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦ م

١٦. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع الفجالة، القاهرة، الطبعة الأولى .

١٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم؛ لمجموعة من العلماء، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية: الطبعة الأولى: ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م

١٨. تناسق الدرر في تناسب السور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالله بن محمدا لدرويش، عالم الكتب، الطبعة الثانية: ١٤٠٨

١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ .

٢٠. جامع البيان عن تأويل آي البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م

٢١. الحيوان، لأبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة: ١٣٨٨هـ .

٢٢. دراسات في علوم القرآن الكريم ، للدكتور زاهر بن عواض الألمعي، الطبعة الرابعة: ١٤٢٨هـ

٢٣. دراسات في القرآن والحديث، د. يوسف خليف، الناشر: مكتبة غريب القاهرة .

٢٤. علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة مسائل البديع، د. بسيوني عبدالفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ

٢٥. علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، للدكتور عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م

٢٦. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .

٢٧. الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ
٢٨. مباحث في علوم القرآن، للدكتور مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثامنة عشرة: ١٤١٢هـ – ١٩٩١ م .
٢٩. مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن، للدكتور محمد عبدالله دراز، دار القلم: الكويت، ١٤٠٠هـ
٣٠. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ
٣١. مقدمة في خصائص الخطاب القرآني بين العهدين المكي والمدني، د. السيد عبدالمقصود جعفر، دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى: ١٤١٣ هـ .
٣٢. المكي والمدني في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور محمد الشايع، ط: الأولى: ١٤١٨هـ .
٣٣. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ .
٣٤. مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٠٦هـ .
٣٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع
ملخص البحث
أهمية الموضوع وسبب الاختيار
أهداف الدراسة
خطة البحث ومنهجه.
التمهيد
أولا: تعريف المكي: تعريفه وأهميته:
ثانيا: أن البلاغة هي مراعاة القوم المخاطبين:
ثالثا: خصائص المجتمع المكي
المبحث الأول: الخصائص الموضوعية لسورة الشرح:
مناسبة سورة الشرح لسورة الضحى التي قبلها
مقصود سورة الشرح ومضمونها
المبحث الثاني: الخصائص الأسلوبية للخطاب المكي في سورة الشرح
المقاطع الثلاثة الرئيسة لسورة الشرح

بلاغة الاستفهام وعلاقته بالخطاب المكي
بلاغة أسلوب التقديم والتأخير وخصائصه في سورة الشرح
سر توافر أسلوب التوكيد في سورة الشرح وعلاقته بالعهد المكي
بلاغة التكرار، وغرضه في تحقيق غرض السورة ومقصودها
بلاغة أسلوب الأمر وأثره في تحقيق غرض السورة ومضمونها
الخاتمة
ثبت المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات